محاضـــــرات الفصـــــل الثـــــــاني لمقياس انتربولوجيـــــا ثقافيـــــة واجتمـــــاعية

المحاضرة الثانية: علاقة الانتربولوجيا الثقافية بعلم الإجتماع

- الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع:

يعتبر علم الاجتماع أكثر العلوم الاجتماعية اقترابا من الأنثروبولوجيا الثقافية وذلك لعدة اعتبارات:

1- يعتبر مجال الدراسة لكل من الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع واحد: دراسة المجتمع ككل أي دراسة مجموعة العلاقات والنظم التي تسود في المجتمع وتكون مجتمعة وحدة مترابطة ومتكاملة. أي أن مدخل كل من العلمين لدراسة المجتمع مدخل متشابه: هو الدراسة الكلية أو التكاملية للمجتمع، وبالتالي فهما يختلفان عن العلوم الاجتماعية الأخرى كالاقتصاد والعلوم السياسية، فالاقتصاد يهتم بدراسة النظام الاقتصادي فقط، والعلوم السياسية تهتم بدراسة النظام السياسي فقط، فكل منهما يقتطع شريحة واحدة من مجموع العلاقات الاجتماعية ويركز على دراستها، ولا يهتم كثيرا بالعلاقة التي تربط هذه الشريحة بسائر الشرائح الأخرى في المجتمع، بينما الوصول إلى هذه العلاقات التكاملية هو من أهم اهتمامات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية.

2- كذلك يتفق علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية في الاهتمام بحاضر وماضي المجتمعات الإنسانية (وإن كان التركيز على الحاضر في كل منهما) ، ويختلفان بالتالي عن علم التاريخ والذي هو علم دراسة الماضي. كذلك يختلفان عن التاريخ في أنهما يهتمان بعمومية الظواهر الاجتماعية، بينما غاية التاريخ هو تناول الظواهر الاجتماعية، كأحداث معينة وخاصة.

3- كذلك يتفق كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية في أنهما يدرسان المجتمع كما هو، وليس كما ينبغي أن يكون وليس معنى ذلك أنهما لا يهتمان بإصلاح المجتمع أو تطويره، بل يعني أنهما يدرسان المجتمع دراسة مجردة عن القيم المسبقة والأحكام المثالية وبالتالي يعتمدان الموضوعية في الدراسة، ولهذا يختلف علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية عن علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق والتي تدرس السلوك الإنساني كما ينبغي أن يكون.

وبالرغم من المجالات العديدة التي يتفق فيها كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية فهناك اختلاف نسبي بين العلمين، وإن كان هذا الاختلاف بدأ يزول تدريجيا اليوم.

هذا الاختلاف النسبي يتمثل في أن الاهتمام الأكبر للأنثروبولوجيا الثقافية ينصب على الدراسة الحقلية للمجتمعات الصغيرة، والتي كانت تسمى بالمجتمعات البدائية، بينما الاهتمام الأكبر لعلم الاجتماع ينصب على المجتمعات الكبيرة، وهي المجتمعات الصناعية والحضرية. في هذا السياق يقول عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي **"مانتشب وايت" (M.White)** إن في استخدامنا لتعبير علم الإنسان، لا نقصد دراسة الإنسان بقدر ما نقصد دراسة الإنسان البدائي، وهذا يعني دراسة المجتمعات الفطرية أو التي لازالت أقرب إلى الفطرة، وذلك لأن دراسة الإنسان المتطور المعقد لمجتمعاتنا المتطورة أو المتحضرة ليست من مهمة عالم الإنسان، بل من مهمة عالم الاجتماع." وتؤكد هذا المعنى محاضرة **"جيمس فريزر"** الموسومة " مجال الأنثروبولوجيا"، والتي يقول فيها: "أعتقد أنه من الأوفق أن نميز بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية، فنطلق التسمية الأولى على دراسة المجتمعات الإنسانية بأوسع معاني هذه الكلمة، ثم نقصر الأنثروبولوجيا على قطاع خاص من هذا الحقل الفسيح الأرجاء، وعلى ذلك يكون مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية محصورا في دراسة الأشكال الأولية البسيطة للمجتمعات الإنسانية، وفي المراحل البدائية من تطورها فهي لا تشمل إذن دراسة المراحل الأكثر تطورا وتركيبا في نمو المجتمعات." ويدعم **"ايفانز بريتشارد" (E.Pritchard)** هذا الرأي في كتابه "الأنثروبولوجيا الاجتماعية" حيث يقول: "أنه يمكن النظر إلى هذه الدراسة على أنها فرع من الدراسة الاجتماعية يهدف على وجه الخصوص إلى دراسة الشعوب البدائية. والاختلاف بين المجتمع الصغير والمجتمع الكبير اختلاف نسبي أيضا، فالمجتمع الصغير يتميز بعدد قليل من السكان، كما يتميز بدرجة بسيطة من التخصص (فمعظم أفراد المجتمع يقومون بعمل واحد أو متشابه كالرعي أو الزراعة مثلا)، وبسيادة العلاقات غير الرسمية المباشرة، أما المجتمع الكبير فيتميز بعدد كبير من السكان، يقيمون في رقعة كبيرة من الأرض نسبيا، ويقومون بوظائف وأعباء متخصصة، وتسود بينهم العلاقات الرسمية غير المباشرة. ويميز **"دوركايم"** بين المجتمع الكبير والمجتمع الصغير على أساس نوعية التضامن أو التماسك في كل منهما. فالمجتمع الصغير يتسم بتضامن آلي أو ميكانيكي، وهو التضامن الذي يستمد من خاصية التشابه عند أفراد المجتمع (تشابه في العمل والمكانة الاجتماعية والسلوك والاتجاهات والقيم)، بينما يتسم المجتمع الكبير بتضامن عضوي وهو التضامن الذي يستمد من خاصية التخصص عند أفراد المجموعة (تخصص في العمل وتنوع في السلوك والاتجاهات)، والتي تحتم بالضرورة احتياج أفراد المجموعة لبعضهم البعض لانتفاء عامل الاكتفاء الذاتي للفرد.

كذلك تختلف نوعية التكنولوجيا في كل من المجتمع الصغير والكبير، ففي الأول تكون التكنولوجيا تقليدية بسيطة، مصدر الطاقة فيها هو الإنسان أو الحيوان، أما في الثاني فهي تكنولوجيا حديثة معقدة مصدر الطاقة فيها غير الإنسان أو الحيوان (كالوقود والذرة والشمس وخلافها).

ويتبع هذا الاختلاف النسبي في نوعية المجتمع الذي يدرسه كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية اختلاف في منهج البحث عند كل منهما، فالأنثروبولوجيا بحكم تركيزها على المجتمع الصغير تعتمد منهج الدراسة الحقلية المباشرة التي تقوم على مبدأ المعايشة الطويلة، والمكثفة للمجتمع المعني، وأخذ المعلومات عن هذا المجتمع عن طريق الملاحظة بالمشاركة، أي ملاحظة ما يقوم به أهالي المجتمع من أنشطة مختلفة وما يعكسونه من سلوك أثناء تأدية هذه الأنشطة، مع الالتزام بمبدأ المشاركة الفعلية في هذه الأنشطة من قبل الباحث، ويستطيع الباحث الاجتماعي أن يعمم ما يستنتجه من ملاحظات عن هذا المجتمع بحكم التشابه والتجانس بين أفراد المجتمع. أما في حالة المجتمع الكبير فلا يستطيع الباحث الاجتماعي أن يعمم أي استنتاج من ملاحظة السلوك لأفراد معينين أو نشاط محدد نسبة لكبر حجم هذا المجتمع وتنوع أنشطته، واختلاف أفراده وعدم التجانس بينهم، وبالتالي كان اعتماد علماء الاجتماع على منهج الإحصائيات والمقابلات والاستبيانات.

إن هذا الاختلاف النسبي بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية بدأ يزول نسبيا نظرا لكون المجتمعات الصغيرة التي يركز على دراستها علماء الأنثروبولوجيا الثقافية بدأت تنمو وتتعقد نسبيا تبعا لزوال العزلة النسبية التي كانت تتميز بها هذه المجتمعات، وانخراطها في دائرة المجتمع القومي الكبير الذي تنتمي إليه لعوامل سياسية واقتصادية مختلفة. ولقد بدأت الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم اهتماما كبيرا بهذه المجتمعات النامية وبدراسة ظاهرة نموها واتجاهاته ومؤشراته، مما أدى إلى قيام فرع هام من علم الاجتماع يعرف بعلم الاجتماع الإنمائي، ولقد أخذ هذا العلم الحديث ينمو بمجهودات مشتركة بين علماء الأنثروبولوجيا الثقافية وعلماء الاجتماع، وهو يمثل نقطة الالتقاء بين العلمين، إذ أن المجتمع النامي هو مجتمع صغير يتخذ تدريجيا شكل المجتمع المعقد، وبالتالي فهو وجهة اهتمام العلمين.

وهنا لابد أن نشير إلى أن اتجاه الأنثروبولوجيا الثقافية للدراسة الميدانية للمجتمعات الصغيرة لا يمثل غاية نهائية ولكن وسيلة لفهم المجتمعات الكبيرة، ولفهم المجتمع الإنساني في شتى صوره وأشكاله، فالأنثروبولوجيا الثقافية ترمي أساسا إلى إخضاع النظريات الاجتماعية التي انبثقت من دراسة المجتمعات الكبيرة إلى المعلومات والحقائق التي تستمد من دائرة المجتمعات الصغيرة، وبالتالي يمكن التحقق من صحة النظرية وثباتها أو من قصورها وفشلها، ويمكن تبعا لذلك قبولها أو رفضها أو تعديلها. والهدف النهائي وراء كل ذلك هو الوصول إلى مفاهيم نظرية تصف التجربة الإنسانية كلها ولا تقتصر على وصف التجربة الغربية كما هو الحال بالنسبة لمعظم المفاهيم التي كونها علم الاجتماع، وهذا ما يفسر موقف **"راد كليف براون"** عندما عرف الأنتروبولوجيا الاجتماعية(*) منذ مدة طويلة بأنها علم الاجتماع المقارن، وكذلك موقف **"محمد عبده محجوب"** عندما طالب بأن يطلق على الدراسات السوسيولوجية

(*)– درج علماء الأنتروبولوجيا في بريطانيا على تسمية هذا النوع من الدراسات بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، خلافا للمدرسة الأمريكية التي تطلق عليها اصطلاح الأنتروبولوجيا الثقافية، معتبرة الأنتروبولوجيا الاجتماعية فرعا منها.

والأنثروبولوجية الاجتماعية كمبحثين تقليديين في دراسة المجتمع "مصطلح الدراسة السوسيوأنثروبولوجية" تجاوزا لتلك القسمة الثنائية القائمة بين العلمين في وقت أصبح التقارب بينهما في الموضوع وطرق البحث واتجاهات التحليل حقيقة ناصعة.

عرفت الأنثروبولوجيا هي الدراسة المتكاملة للإنسان بما تحويه من جوانب سيكولوجية وبيولوجية وفسيولوجية وثقافية واجتماعية. وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية تستخدم هذا المفهوم. وهاهو **"تايلور" (Tylor)** يعرفها بأنها: "الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان" فهي تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية